حتى لا يخضب ثانية .. لبنان !

بقلم الدكتور ميشال سليمان

بيروت ... بقميصها ، وخضابها المتعدد الالوان ، نامت تلك الليلة ، غافلة عما يحاك لها ، شأنها في كل ليلة ، مستسلمة لخيوط حلم وردي ... وما كان في نيتها ان تفيق في ذلك الهزيع الاول (من ليل العاشر من نيسان ١٩٧٣) لولا ان طرقت ابوابها اكف تضرجت بدماء مآثمها الطريفة والتليدة ، وما سيكون .

أجل ! ما كان لبيروت الحكم ان تستيقظ ، لو لم يمزق سكينتها رشاش من الطلقات النارية ، يخترق صدور عصبة من الشهداء الفلسطينيين ، شهداء القضية الفلسطينية ، ويستقر في القلوب ، فيفجرها حقدا على اسرائيل والصهيونية والرجعية العربية والاستعمار .

* * *

ففي الساعة الواحدة من ليل العاشر من نيسان ، تسللت عصابات اسرائيلية مسلحة بالرشاشات ، والقنابل ، والمسدسات الكاتمة ، الى بنايتين في قلب العاصمة اللبنانية بشارع فردان ، والى مقر الجبهة الشعبية الديموقراطية بقرب جامعة بيروت العربية ، والى محلة الدوره ، فيما العاصمة نائمة عن ليل « فلسطين لبنان » ، دون ان يدور في خلدها انها ستكون في هذا الوقت ، عرضة لواحدة من اشنع ضروب الانتهاكات التي عرفتها في تاريخها الحديث ، ودون ان تعلم بأن العدو موجود في داخلها ، منذ عدة ايام ، بل عدة اسابيع ، يطوف شوارعها ، يصور ، يرسم ، يراقب ، يرصد ، ويتأمل ، على نحو ما يفعل السائحون ، ورجال الاعمال ، والجواسيس ، والمضاربون في سوق البورصة ...

والمقاومة الفلسطينية ايضا ، كانت في تلك اللحظة ، غافلة عن مداورات عدوها هذا ، وعن طرق انسيابه ، مطوفا حول مواقعها ، ومساكنها ، يقيس الطرق ، والمنعطفات ويدرس مواقيت تحركاتها ، حتى اذا توفرت له كل المعلومات اللازمة ، عمد الى تنفيذ جريمته النكراء ، التي أودت بحياة عدة مناضلين فلسطينيين ، في طليعتهم الشهداء : كمال ناصر (الناطق الرسمي باسم منظمة التحرير الفلسطينية)وابو يوسف (رئيس الدائرة السياسية لحركة فتح) وكمال عدوان (عضو اللجنة المركزية لحركة فتح) وقد داهمتهم قوات العدو الاسرائيلي في منازلهم ، فقضت على الاول ، فيما كان يكتب مؤكدا : « ان القيادات تتغير ، وان الاشخاص قد يزولون ، وتبقى القضية اكبر من القيادات والاشخاص » . وقضت على الاثنين الاخرين ، بعدما تبادلا معها اطلاق النار ، وقتلا منها عددا قبل ان يقتلا . وكانت حصيلة مداهمة مركز الجبهة الشعبية الديموقراطية اربعة قتلى ، رشق الكومندوس الاسرائيلي مقرهم بالقنابل السامة ، بعدما اصلوه نارا قضت على ستة منه ، وانسلوا تحت جنح الظلام ، ناقلين موتاهم وجرحاهم ، ومخلفين بعض الاسلحة ، والعديد من التساؤلات ، وعلامات الاستفهام حول موقف الحكومة اللبنانية، من ترك الحبل لهم على الغارب، ينتهكون حرمة الوطن ، ويقتلون اثنين من رجال الامن اللبنانيين بلا سبب ، وينصرفون دون ان يرشقهم احد المسؤولين بنظرة واحدة على الاقل.

والحق ، ان موقف بيروت الرسمي كان من الاستهجان بحيث امتدت اليه الاصابع تتهمه بالتواطؤ ، والتخاذل ، ومحاولة ستر ما يبيت في السر والعلن ، ضد المقاومة الفلسطينية ، واغفال الدور الحقيقي لاسرائيل ، واميركا ، في محاولة تصفية المقاومة الفلسطينية ، اذا ما عجزت الرجعية العربية ، لسبب أو لاخر ، عن القيام بهذا الدور الخطير .

ولم يكن موقف بيروت الرسمي هذا بمستغرب ، بالتالي ، لدى الاوساط التقدمية ، ذلك لانه ، منذ العدوان الاسرائيلي المشهور على مطار بيروت الدولي ، الى سلسلة ما ارتكب من اعتداءات ، واغتيالات وجرائم هزت الوجدان العربي والعالمي ، وليست جريمة قتل غسان كنفاني بآخر حلقة فيها ، كان من الدلالة بما يؤكد ان بيروت الرسمية همها الاكبر ان تدعم مواقعها هي ، باطلاق النار مثلا ، على زراع التبغ المطالبين ببعض عرق جبينهم ، وعلى الاساتذة والطلاب المضربين والمعتصمين من اجل حق اعترف لهم به ، وحبس عنهم ، وعلى القوى الوطنية والتقدمية الواقفة بالمرصاد لكل من تحدثه نفسه بالتآمر على قضية لبنان ، وقضية فلسطين لبنان ، وقضية العرب اجمعين ، وقد كان قصارى جهد بيروت الرسمية في تغطية العار الذي لحق بها من جراء موقفها من هذا العدوان الاسرائيلي ، ان استقالت الحكومة ، وجيء باخرى .. جديدة .

غير ان ردود الفعل ، من قبل بيروت الشعب ، كانت من العنف والجهر ، بحيث انطلقت في تظاهرة يوم تشييع الشهداء ، تسد الشوارع، معربة عن غضبها تجاه السياسة اللبنانية الداخلية والخارجية المتخاذلة ، والمكبلة بقيود فضائح سماسرة السلاح ، وما اليها ، مما جعل ويجعل الوطن بدون سياسة دفاعية ضد الاعتداءات الاسرائيلية المتكررة .

لقد انبرت الجماهير اللبنانية ، اثر الجريمة السوداء ، بدافع

من تعاطفها الاصيل مع المقاومة الفلسطينية ، وانطلاقا من وطنيتها التي لا تالو جهدا في الاعراب عنها ، مبدية عميق استنكارها لخرق حرمة لبنان ، ومسخ سيادته ، وتحويله الى منطقة ((حرة)) تعيث فيها زبانية الاستعمار فسادا ، وتحوك المؤامرات على كل من يرفع الصوت ، ويقف الموقف الذي تمليه عليه الظروف الموضوعية التي تمر بها الثورة العربية ، والشعوب العربية التي تشكل ، بمعنى او بآخر ، فصائلها ، وعوامل استمرارها وانتصارها ، وقد اكدت ايام ما بعد الاعتداء على لبنان ، واغتيال بعض قادة المقاومة الفلسطينية ، على ان التظاهرات التي ملأت بالغضب والاستنكار ساحات العواصم العربية ، هي بواكير الخروج من جو الانفعالات العاطفية ، الى مجالات الوعي الموضوعي ، الذي يؤكد ان دماء الشهداء لم تهدر عبثا ، وانها بالتالي، ستكون الخمير القمين باطلاع عجين التحرر الكبير .

فاذا ما كان هذا التيقظ الجماهيري الواعي ، قد عبر وسط المأساة ، عن رغبته في تخطي انكارثة التي نجمت عن تقاعس السلطات، فحري به ان ينعكس ، ايضا ، وعيا يقظا على قيادات المقاومة الفلسطينية ، وعلى تحركاتها النظرية والعملية ، حتى تنهض بأعباء التحرر والثورة التي تنوء بها ، حتى الان ، سائر الانظمة العربية ، وتقوم بمسؤولية التصدي لاشنع فاشية في التاريخ الحديث ، بحيث لا يكون امام الجماهير العربية سوى سبيل واحد ، هو دعم المقاومة الفلسطينية بمختلف الوسائل والامكانيات ، لكي تتوضح مهمتها ، ودورها في هذه المرحلة انخطيرة من حياة الامة العربية ، والثورة العربية الراهنة ، وما تعانيه من تآمر الامبريالية ، والصهيونية ، والرجعية العربية ، وضغوطها من اجل الاستسلام والتصفية ، المتمثلين بمخططات الاستيطان ، وضرب المقاومة الفلسطينية ، ومحاولة ابادة الشعب الفلسطيني ، بالتالي ، اينما كان .

كما ان التيقظ الجماهيري هذا ، قد كشف النقاب عما استتر من خفايا السياسة الاميركية في المنطقة ، وعن مشاركة المخابرات الاميركية مباشرة في اعداد الجريمة الوحشية وفي تنفيذها ، وفي اخفاء وتهريب عدد من المشتركين فيها ، وان اميركا هي الشريكة الكاملة لاسرائيل في كل ما تقترفه ضد الشعب الفلسطيني وسائر الشعوب العربية ، ومع ذلك ، يستمر توجه العديد من الحكام العرب نحوها ، من أجل استرضائها ، والتنازل لها عن كل شروط السيادة والتحرر الفعليين . كما كشف ايضا عن مطامع اميركا في احتلال مصبات النفط، وانابيبها ، وابارها ، ومصافيها ، بحجة حمايتها مما قد تتعرض له من دوافع الغضب العربي ، عندما يقرر استخدام النفط وسيلة من وسائل دعم الثورة العربية ، واستعادة الحقوق السليبة . وقد جهدت بذلك اثر اندلاع النيران في مصفاة الزهراني ـ قرب صيدا ـ ومحاولة نسف انابيب التابلاين . الا ان المقاومة الفلسطينية ، وبعض القوى التقدمية في لبنان ، بادرت الى فضح هذه اللعبة ، مؤكدة انها من اعداد وتنفيذ دوائر الاستخبارات الاستعمارية والصهيونية ، وهي ترمي ، بالدرجة الاولى ، الى التحريض على المقاومة الفلسطينية ، وضرب القوى التقدمية التي عبرت في لبنان ، وفي سائر المدن الكبرى، عن تضامنها مع فلسطين لبنان ، والمقاومة جملة ، في اكبر تظاهرة عرفتها العاصمة بيروت .

وقبل ان يجف دم شهداء المقاومة ، عادت الشوارع تتخضب مرة ثانية بالدماء . ولم تكن هذه المرة شوارع بيروت وحدها ، بل تعدتها الى عدة مناطق لبنانية . ولم يكن اعتداء اسرائيليا هذه المرة ، وانما كان معركة نشبت بين قوى المقاومة الفلسطينية وبين الجيش وقوى الامن اللبناني . اعلنت على اثرها حالة الطوارىء في كل انحاء لبنان. وفرض قانون منع التجول ، الا في ساعات معينة . كما فرضت الرقابة على الصحف . وكانت المعركة التي استخدمت فيها كل انواع الاسلحة ، كلما اوشكت ان تجد لها حدا ، يقوم ما سمي بالطابور الخامس المتغلغل في انحاء كثيرة من العاصمة بالتحرش بالجبهتين ، واطلاق النار على الطرفين ، بحيث ان المعارك كلما كادت ان تصل الى نهاية ، تستيقظ من جديد . وقد بقيت الحال هكذا زهاء عشرة ايام . تقاطر خلالها ((رسل السلام)) من اكثر الاقطار العربية ((يلطفون الخواطر)) .

واتصل بالمسؤولين اللبنانيين العديد من سفراء الدول الصديقة وغير الصديقة . وقد حسب قسم منهم ان ثمة محاولة لتصفية المقاومة على الصعيد اللبناني ، على نحو ما جرى في ايلول الاردن الاسود . وهنا تجدر الاشارة الى ان الجمهورية العربية السورية كانت اول من استفدح ما كان سيحصل ، فما كان منها الا ان صعدت الوضع باغلاق حدودها مع لبنان . واخذت صور انقسام البلد الى يمين ويسار تتوالى في مناسبات وبدون مناسبات ،حتى حسب المراقبون للاوضاع السياسية ولما يدور حولها ، ان الحال تنذر بعواقب وخيمة .

لكن هذه العواقب لم تتماد،وان بدت فادحة بالنسبة للاقتصاد اللبناني . وسبب عدم تماديها يعود الى عدة اسباب اهمها : ان المقاومة الفلسطينية في لبنان اثبتت ان علاقتها بلبنان تختلف نوعيا وجذريا عن العلاقات الفلسطينية الاردنية . وان لبنان بالمقابل لم يحاول ادماج الفلسطينيين سياسيا فيه ، او ضمهم اليه . وان مطلب المقاومة الوحيد في لبنان هو ان يناضلوا من اجل قضية وطنهم المغتصب . وان اتفاق القاهرة وسواه لم يكن يحمل غير هذا المعنى. وان الحركة الوطنية في لبنان اعربت عن تأييدها وتضامنها مع المقاومة في كل المناسبات . وان الوضع الاقتصادي اللبناني يرى ان مثل هذا التصادم بين لبنان الرسمي والمقاومة الفلسطينية سيعود عليه بالخسائر الجسيمة .

فقد قدر الاقتصاديون الراسماليون خسارة قطاع الخدمات خلال الاحداث الدامية ، باربعين مليون ليرة لبنانية ، وخسارة قطاع الصناعة بما يناهز ال ٣٣ مليون ليرة ،و٣٥ بالمئة من الانتاج الصناعي يصدر بالشاحنات عبر سوريا . وقدرت خسارة الزراعة عن فترة الاحداث بنحو ١٢ مليون ليرة . كما قدرت خسارة القطاع العام باربعين مليون ليرة . والتقدير الحسابي الراسمالي الذي وضع هذه الارقام ، اخذ بالاعتبار فقط الخسائر الآنية (خسائر ٩ ايام) وهو تقدير محدود وغير دقيق ، لانه يتناول حالة «عدم الثقة» التي اوجدتها الاحداث ، وستمتد اثارها الى المستقبل ، واذا لم تعد الامور بسرعة الى مجراها العادي والطبيعي .

وقد كانت هذه الخسائر المادية الباهظة هي التي تضغط على الفئات السياسية الاكثر ارتباطا بهذه القطاعات ، من اجل الوصول الى حل سريع للازمة ، علما بان الاقطاع العقاري والزراعي في البلاد قائم في اكثر جوانبه على اليد العاملة الفلسطينية والسورية . وهذه جميعا ، الى جانب عوامل اخرى ، ادت الى وضع حد ((للحالة الحربية)) التي عاشها لبنان في ظل قانون الطوارىء ، وذهبت بالعديد من الضحايا ، كما ادت الى عدم تأزيم العلاقات اللبنانية الداخلية ، والعلاقات اللبنانية الفلسطينية .. والعربية ، وكان ان انتهى الصدام بلقاء مندوبين عن السلطة اللبنانية ، وبين ممثلين للمقاومة ، فاتفاق على اعادة الامور الى ما كانت عليه قبل الحوادث المشؤومة .

وهنا تجدر الاشارة الى ان المقاومة الفلسطينية في هذه

الاحداث ، السابقة والتي تلتها، كانت محاطة بتعاطف ومساندة القوى التقدمية والوطنية على اختلاف اشتقاقاتها ، بحيث اصبحت الحال احوج ما تكون الى التأكيد على ان هذا الاحتضان وهذه المساندة على الصعيدين اللبناني والعربي ، ستظل قاصرة عن القيادة بدورها الهام اذا لم توطد قاعدة من التفاهم حول الخطوط الاساسية الموضع العربي الراهن ، ولدور المقاومة فيكل من اجزائه ، وللموقف الذي ينبغي ان يتخذ ازاءه . واذا لم تعزز حملة الدعوة الى اطلاق الحريات الديموقراطية في جميع الاقطار العربية ، لكي تتنفس الجماهير وطلائعها قدر ما يجب مما يؤكد حقوقها في التخطيط وفي الممارسة على السواء . اذ كيف تتمكن جماهير الشعب من ان تعبر عن مطامحها وامانيها ، وهي في دائرة ضيقة من التقنين في ممارسة الحرية ؟.

وكيف يتمكن شعراء الامة وادباؤها ومفكروها الاحرار ، وهم صوت الجماهير ، ومفاد تجاربها ، وتمثل اعتمالاتها وانفعالاتها ، من ممارسة دورهم في معركة المصير والتحرر العربيين ، وهم مفلولو الالسن ، مطروحون على هامش المعركة ، او انهم يعيشون في غلوائها ، ولا صوت لهم ، ولا هم ينطقون ؟.

بل كيف يمكن لجميع الفئات ، صاحبة المصلحة في الثورة الاجتماعية عامة ، ان تشارك في هذه الثورة ، بدون ان تمارس حقوقها في العمل السياسي والتنظيمي ، وبدون ان تحتل مركزها في الصراع الاجتماعي لتقوم بدورها التاريخي ؟

ان اسرائيل ، بمساندة اسيادها ، ستظل متمادية في اعتداءاتها الاجرامية ، ما دامت ردود الفعل من قبل الانظمة العربية تجيء دائما ادنى بكثير من الفعل الاسرائيلي ، ان لم نقل ان : ليس ثمة ردود فعل. وما دامت الحال بالنسبة للانظمة العربية جمعاء ، هي على ما هي عليه، فان اسرائيل ستمعن في عدوانها ، وهي على مثل اليقين ان ليس ثمة من يجابه ، او يرد . وستظل تستغل هذه البلادة في الموقف العربي، بل التواطوء بشكل او بآخر وستظل ايضا مستفيدة من « جو الحياد » الذي تحاول بعض الاقطار العربية ان تصطنعه لنفسها ، وهي ، لو علمت ، المقصودة مباشرة من كل اعتداء ، والمعنية مباشرة في كل تحرك والمطموع بها دائما من خلال اي مسعى عسكري او سياسي ، تقوم به الديبلوماسية الاسرائيلية داخل المنطقة ، وعلى الصعيد الدولي العام .

كل هذا ، والرد لا يتعدى معارك الخطب ، والبيانات ، والتجمعات والمؤتمرات التي تقوم بين القمة ، وبين القاعدة ، ولا قمة بحجم المسؤوليات ، ولا قاعدة منظمة قادرة على القيام بدورها ، بوصفها المبتدي والخبر من كل تحرك فعال ، وكل انتصار .

وكلما خلنا زمن الانفعالات العاطفية مضى وانقضى ، او يكاد ، يجبهنا الواقع باكثر من دليل يجعلنا على مثل اليقين بان العدد الاوفر من القيادات الثورية العربية ما برحت اسيرة ذهنية قاصرة ، وعاجزة عن تبني الموقف النظري والعملي الذي تمليه عليها المرحلة التاريخية التي تجتازها الامة العربية جمعاء ، على اختلاف مستويات اقطارها ، الاجتماعية والسياسية . كما انها في الوقت ذاته ، غافلة حينا ، ومتغافلة حينا آخر ، عن معرفة الاعداء ، وساهية عن التمحيص في موقف الاصدقاء ، وعن علاقتها بالاثنين وما ينبغي ان يكون . حتى لكان الشكوى داء فيها اصيل ، عز دواؤه .

فما تواجهها كوارث العصر وتحدياته ، الا ونجدها تحسر عن رؤوسها ، وترفع الايدي منادية بالويل والثبور ، وكانها كانت سلفا متأكدة من انها ماضية في سبيلها ، نحو اهدافها المصيرية ، دونما حساب لما قد يحصل ، وما قد يبيته لها الاعداء . حتى اذا ابتليت بالعدوان ، كانت وسيلتها الوحيدة للرد ، رفع القبضات وطرح الصوت على الدنيا، ورشق العدو بما توفر لديها من تهم ونعوت ... كانما الظن بالاعداء ، من الحسن بحيث لا يتوقع منهم اي شر او عدوان ... ومن ثم ، التحدث عن « التخلف » وما اليه من ضروب « الكلام الصالوني » الذي تتفله السنة بعض الذين يطيب لهم تصوير الواقع المتردي ، والتاسف عليه ، بدون المشاركة في تبديله .

* * *

... وحتى لا تذهب ارواح الشهداء سدى ، ولكي لا يهدر عناد الشعب الفلسطيني الذي ، هو الوحيد الان ، القادر على ان يعوض بثباته ، عن واقع التردي الذي تتيه فيه الانظمة العربية ... يجب على المقاومة الفلسطينية ، وعلى عواصم الجماهير العربية ، وعلى لبنان الشعب ، ان لا يتخضب بعد اليوم ،ولا ينام .

بيروت — **ميشال سليمان**

مؤلفات كولن ولسون

	ق.ل.
• ضياع في سوهو **ترجمة يوسف شرورو وعمر يمق**	٤٠٠
• الشك **ترجمة يوسف شرورو وعمر يمق**	٥٠٠
• المعقول واللامعقول في الأدب الحديث **ترجمة انيس زكي حسن**	٥٥٠
• اصول الدافع الجنسي **ترجمة يوسف شرورو وسمير كتاب**	٧٠٠
• اللامنتمي **ترجمة انيس زكي حسن**	٦٠٠
• ما بعد اللامنتمي **ترجمة يوسف شرورو وسمير كتاب**	٥٥٠
• القفص الزجاجي **ترجمة سامي خشبة**	٨٠٠
• طقوس في الظلام **ترجمة فاروق محمد يوسف**	٧٥٠
• سقوط الحضارة **ترجمة انيس زكي حسن**	٦٥٠
• رحلة نحو البداية	٩٠٠

منشورات دار الآداب ـ ص . ب ٤١٢٣ بيروت